تفسير ابن كثير

أمر تعالى رسوله صلى ا عليه وسلّم بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الاخرة وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول ا صلى ا عليه وسلّم بأربعة أسياف : سيف للمشركين { فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين } وسيف لكفار أهل الكتاب { قاتلوا الذين لا يؤمنون با ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون } وسيف للمنافقين { جاهد الكفار والمنافقين } وسيف للبغاة { فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر ا } وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : { جاهد الكفار والمنافقين } قال : بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه وقال ابن عباس : أمره ا تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم وعن مقاتل والربيع مثله وقال الحسن وقتادة مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال وا أعلم وقوله : { يحلفون با ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم } قال قتادة : نزلت في عبد ا بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري فقال عبد ا للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ وا ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي صلى ا عليه وسلّم فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف با ما قاله فأنزل ا فيه هذه الاية وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال : فحدثني عبد ا بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك Bه يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول ا يقول : [اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار] وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [أوفى ا له بإذنه] قال : وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول ا صلى ا عليه وسلّم يخطب : لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير فقال زيد بن أرقم : فهو وا صادق ولأنت شر من الحمار ثم رفع ذلك إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فجحده القائل

فأنزل الله هذه الاية تصديقا لزيد يعني قوله : { يحلفون بالله ما قالوا } الاية رواه البخاري في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ـ إلى قوله ـ هذا الذي أوفى الله له بإذنه ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة بإسناده : ثم قال قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب .

والمشهور في هذه القصة أنه كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وهم في ذكر الاية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم قال الأموي في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم أخذني قومي فقالوا : إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلّم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير ؟ فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم بلاء عندي وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني ولإحداهما أهون علي من الأخرى فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلّم فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب علي فأنزل الله D فيه { يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم } إلى آخر الاية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليها فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع .

هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الاية في الجلاس بن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بما قلت فأتيت النبي صلى الله عليه وسلّم وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت : يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك قال : فدعا الجلاس فقال [يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب ؟] فحلف فأنزل الله { يحلفون بالله ما قالوا } الاية وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد

ا بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول ا A جالسا في ظل شجرة فقال : [إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم ـ بعيني الشيطان ـ فإذا جاء فلا تكلموه] فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول ا A فقال : [علام تشتمني أنت وأصحابك ؟] فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا با ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل ا D { يحلفون با ما قالوا } الاية وقوله { وهموا بما لم ينالوا } قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول ا A وقيل في عبد ا بن أبي هم بقتل رسول ا A وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد ا بن أبي وإن لم يرض رسول ا A وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي A وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الاية وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان Bه قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول ا A أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فأنبهت رسول ا A بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول ا A : [هل عرفتم القوم ؟] قلنا : لا يا رسول ا قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال : [هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟] قلنا : لا قال : [أرادوا أن يزاحموا رسول ا A في العقبة فيلقوه منها] قلنا : يا رسول ا أفلا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : [لا أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره ا بهم أقبل عليهم يقتلهم ـ ثم قال ـ اللهم ارمهم بالدبيلة] قلنا : يا رسول ا وما الدبيلة ؟ قال : [شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك] وقال الإمام أحمد C : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد ا بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول ا A من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول ا A أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول ا A يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول ا A فأقبل عمار Bه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول ا A لحذيفة [قد قد] حتى هبط رسول ا A فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار : [هل عرفت القوم ؟] قال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال [هل تدري ما أرادوا ؟] قال : ا ورسوله أعلم قال : [أرادوا أن ينفروا برسول ا ـ A ـ راحلته فيطرحوه] قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول ا A فقال نشدتك با كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول ا A منهم ثلاثة قالوا : وا ما سمعنا منادي رسول ا A وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد : أن الاثني عشر الباقين حرب ولرسوله في الحياة

الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول ا A أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع ا على مرادهم رسول ا A فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول ا A حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات ا وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق إلا أنه سمى جماعة منهم فا أعلم .

وكذا قد حكي في معجم الطبراني قاله البيهقي ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال : أنشدك با كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ؟ فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد با أن اثني عشر منهم حرب ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول ا A ولا علمنا بما أراد القوم ؟ وقد كان في حرة يمشي فقال : إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي A أنه قال : [في أصحابي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم] ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول ا A دون غيره وا أعلم وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روي عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشيرة ووديعة بن ثابت وجد بن عبد ا بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قيظي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بني الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهرا الإسلام .

وقوله تعالى : { وما نقموا إلا أن أغناهم ا ورسوله من فضله } أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن ا أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليه السعادة لهداهم ا لما جاء به كما قال A للأنصار : [ألم أجدكم ضلالا فهداكم ا بي وكنتم متفرقين فألفكم ا بي وعالة فأغناكم ا بي] كلما قال شيئا قالوا ا ورسوله أمن وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله : { وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا با } الاية وقوله عليه السلام [ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه ا] ثم دعاهم ا تبارك وتعالى إلى التوبة فقال { فإن يتوبوا يك

خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم ا عذابا أليما في الدنيا والآخرة } أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم ا عذابا أليما في الدنيا أي بالقتل والهم والغم والاخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار { وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير } أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا